

جمعية العلوم الاقتصادية السورية



ص.ب: ٢٩٧٩ - فاكس: ٢٣٣٥٤٦٢

هاتف: ٢٣٣٤٤٢٧ - ٢٣٣٥٤٦١ - دمشق

موقع الجمعية على الأنترنت للاطلاع على
المحاضرات السابقة

WWW.syrianeconomy.org/

ندوة الثلاثاء الاقتصادية الرابعة والعشرون

حول

«التنمية الاقتصادية والاجتماعية في سورية»

دمشق ٢٥/١/٢٠١١ - ٢٨/٦/٢٠١١

الحدّاثة، والتّنميّة،

والعوّلة، والهويّة

الدكتور رزق الله هيلان

18

21/06/2011

الحدائة , التنمية , العولمة , الهوية , و الأزمة

في أزمة العالم العربي اليوم

رزق الله هيلان

أزمة-عتبة، أم أزمة-فناء؟

"تنبهوا واستفيقوا ايها العرب / فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب"

(ابراهيم اليازجي 1868)

"لماذا تأخر المسلمون، وتقدم الغربيون؟"

(الشيخ محمد عبده، حوالي 1900)

تحولات أجهضت

1- من أحشاء الأزمة الاقتصادية الكبرى التي اجتاحت النظام الرأسمالي بدءاً من الولايات المتحدة عام 1928 والتي قادتها إلى النازية وإلى الحرب العالمية الثانية، من آلامها ومآسيها، من كفاح القوى الوطنية التحررية وتجاوب القوى المنتصرة، انبثق شيء جديد يبشر ببدء مرحلة جديدة في عمر الجنس البشري، مرحلة أكثر تقدماً وإنسانية وأخلاقاً.

ولدت منظمة الأمم المتحدة، ومؤسساتها ومواثيقها: الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، حقوق الشعوب وثقافتها، حقوق المرأة والطفل، وغيرها... أزيل النظام الاستعماري وولدت الدول الحديثة المستقلة ذات الشكل السياسي الليبرالي الديمقراطي-الاجتماعي، ونشأ معها تكوين منظمات دول العالم الثالث للدفاع عن حقوقها في السيادة والتنمية. كانت هذه الإنجازات انتصاراً رائعاً لكفاح الشعوب المستضعفة وحققها في التحرر والكرامة، انتصاراً أفضى بدوره إلى انتصارات توالى على مدى نحو ربع قرن وأسست للنظام الجديد: جلاء جيوش الاستعمار، المشاركة في تأسيس منظمة الأمم لمتحدة، تبني مشروع التنمية الاقتصادية والاجتماعية كقاعدة مادية لتحديث الدولة والاقتصاد والمجتمع، التعاون الدولي المالي والفني.

وفي بلداننا العربية بالذات، التي حصلت بكفاحها السياسي على دولتها الوطنية المستقلة، تولدت حالة من الحماسة الوطنية والقومية والثقافية والثقة بالنفس والإيمان بأن طريقنا إلى عصر الحداثة، عصر التقدم والحرية والكرامة، صار ممهداً وأنا سندخله منتصرين على قوى التخلف التاريخي خلال فترة وجيزة من الزمن.

وبالفعل سرنا في هذا الطريق منتصبي القامة بالرغم من وأيضاً بسبب الانقلابات العسكرية واندحار الديموقراطية البرلمانية، فأنجزنا خطوات كبرى بالتعاون مع قوى التحرر والتقدم العالمية الصاعدة. في هذه الأجواء الخماسية بنيت المشاريع الاقتصادية الكبرى وانتشر التعليم بمستوياته المختلفة وتكونت في قلب مجتمعاتنا التقليدية وفي صراع-حوار معها عناصر محاكية للثقافة الحديثة بشقيها: الرأسمالي الغربي السائد، من ناحية، والاشتراكي النقدي المعارض له، من ناحية ثانية.

2- ثم بدأ العد المعاكس وانتشر الزمن الرديء، وانبعثت الأزمة من رقادها:

- أولاً على نطاق العالم الصناعي،

تراجع النظام التشاركي-التوافقي، صعود الهيمنة الأميركية، تفجر الأزمة النقدية ثم الاقتصادية، انبعاث القوى الرأسمالية المحافظة وإطلاقها مشروع أو نظام العولمة: فرض قانون السوق على العالم أجمع، خصخصة الدولة لخدمة السوق، سيطرة "الحلف المقدس" بقيادة الرأسمال الأميركي ضد أي توجه اجتماعي-إنساني.

- ثانياً على النطاق العربي،

هزيمة حزيران 1967، انتكاس المشروع القومي، تفكك وصراع القوى الوطنية، صعود قوى الرأسمالية الريعية والمالية، تفشي الجريمة المنظمة والفساد المعمم، سيطرة الحزب الواحد والخطاب المخشوشب والمؤسسة الأمنية، تراكم الثروات النقدية وانتشار الفقر والبطالة، الأزمة الاقتصادية والاجتماعية، تصاعد التبعية والمديونية، تضعف ثم انهيار العملة الوطنية بتوجيه صندوق النقد الدولي، تراجع عملية التنمية وخصخصة الدولة. الهزائم تتوالى، الأزمة-المأزق تنفث في ربوعنا ونفوسنا، الآمال والأحلام تتكسر. لكن أيضاً استكمال ودفع مشروع التحديث المظهري، الصناعي-

النفطي- الاستهلاكي بقوة "صاروخية" أصاب مشروعنا النهضوي في الصميم. لا يسير الواقع أبداً في خط مستقيم، في طبيعة الحياة يكمن التناقض الذي لا حركة دونه. 3"- اليوم، في مطلع القرن 21، ثمة من ينادي مجدداً وثمة ما يذكرنا بنداء الشاعر اليازجي في ستينات القرن الماضي: تنبهوا واستفيقوا أيها العرب... وينطرح مجدداً سؤال النهضة الأولى: لماذا هم وليس نحن؟ لماذا نزداد تخلفاً ويزدادون ثراءً وقوةً؟ وخلفه يستعاد طرح مسألة الإصلاح الديني ودوره في الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي، المسألة التي طرحها الشيخ محمد عبده منذ نحو مائة عام ونيف. ما سبب تكسر مشاريعنا وأحلامنا؟، ما سبب أزمتنا التي، كما طائر العنقاء، ما أن تتبعث قليلاً حتى تخبو دهرأ؟ ما العمل لتجاوزها؟

- نلاحظ، إذن، انتشار أزمة شاملة يعاني منها ع ع، تخيم عليه، تعشش في داخله. تضايقه، تقلقه، تعذبه. ماض نكيه ولا نريده أن يمضي، ومستقبل يتحدانا، يشدنا، نريده ولا نعرف سبله. وبينما الأرض تهتز تحت أقدامنا فلا نجد خشبة نجاة نمسك بها. أزمة، مأزق، متاهة، كارثة محدقة؟ تلك هي الحالة العربية اليوم.

هذا ما لاحظه حكم إنسوري، إثر تأسيس المنظمة العالمية للتجارة وانتشار العولمة

النيوليبرالية قبل أكثر من عشرة

أعوام:

"تنزلق مجتمعاتنا العربية، باسم الحداثة الجديدة والعولمة، على منحدر خطير يدفعنا إلى بخر الحياة الجماعية التي تعطي لحياة الإنسان هوية ومعنى، كمثل البيئة الاجتماعية النظيفة، التربية الصادقة، جودة الخدمات العامة، الغيرة على قضايا النفع العام وتعزيزها، بينما نغرق في أوحال المنفعة الفردية الخاصة وهوس القوة والمتعة والاستهلاك. أليس في هذا الانزلاق ضياعنا، مأزقنا، عبوديتنا؟"

4"- وجاء الجواب صارخاً مدوياً، أتت به الثورة العربية الجامعة:

جاء زمن الوعي، زمن مساءلة الذات، زمن الحساب. لا يجدي الاعتقاد بأن المشروع الذي نادينا به كان صحيحاً، وكان جميلاً. نعم، كل المشاريع كانت صحيحة

وكانت جميلة وأثارت حماسة جماهير وزعماء. أين الخطأ إذن؟ في الاستبداد؟ في خيانة الزعماء أو في كفاءتهم المزيفة؟ في الأجنبي؟ هراء. شيء واحد لم يجرؤ أحد عليه: الجهاد، الجهاد الأكبر، الجهاد ضد ضلالات الذات، ضد جهالة الذات، ضد تضخمها وغلوائها. جهاد المعرفة والعقل والخلق العظيم، هذه هي الضرورة التاريخية المفروضة علينا اليوم. فهل يطهرنا العذاب، هل ترفعنا الأزمة القاتلة إلى الوعي الفاعل، إلى العقل؟

2 - مقدمة تاريخية:

سورية، من الإبداع إلى الركود، فالتخلف، فالصدمة-اليقظة، فالأزمة.

1-2- ذكريات شخصية وعامة:

أ- نحو عام 1938-39، والدي، البالغ أربعين عاماً والذي انتقل لتوه من القرية ليقطن المدينة، يودع عالم الشروال والطربوش.

ب- في عام 1945-46، جلت الجيوش الأجنبية عن سورية، ونشأت دولة سورية مستقلة سياسياً، دولة ذات بنية محاكية للنمط الأوربي الحديث: دستور، أحزاب، فصل السلطات الثلاث، انتخابات ديموقراطية برلمانية، حقوق معترف بها للجميع دون تمييز بين الأديان والطوائف ولا بين الرجل والمرأة، تعليم عام إلزامي ومجاني لجميع الأطفال. لكن هذه الديمقراطية فسدت سريعاً، وسقطت بيد القوى المسلحة، القوى الأكثر حداثة في الدولة والمجتمع، لباساً وتنظيماً وتسليحاً.

ج- عام 1950، انقلاب حسني الزعيم: استبداد في السياسة يقابله تحديث حقوقي وحضاري: إقرار القانون المدني الحديث، حل مشكلة الأوقاف الذرية، موجة عارمة من الأمل بدخول عالم الحداثة: جاري في اللاذقية، اللحم البسيط عبدالرحمن الذي كان يرتدي لباساً تقليدياً، يهتف: الزعيم بدو يمدنا، بدو يلبسنا صدرية بيضا ونصير محترمين. لاحظ في هذه اللغة البسيطة كيف يربط هذا الإنسان التقليدي حتى العظم، بين الشكل، شكل اللباس، الصدرية البيضاء، بالمضمون الحداثي: التمدن والكرامة والاحترام.

د- أول فتاة مدينية محجة على النمط القديم ولكن بحجاب رقيق يزيد في جمالها، نراها تأتي مزهوة إلى العمل في إدارة حكومية-إدارة شركة مرفأ اللاذقية في مبناها الحديث، متحدية الأعراف وهمسات الرجال وتساؤلات الناس.

هـ- 1958 سقوط الدولة الديموقراطية الضعيفة أمام الحلم الطاغي. لم يصمد الحلم، تعثر وسقط. لماذا؟ لأنه حلم عظيم وليس الواقع.

د- تبليط البحر: هل الساحات الواسعة المكتسبة من "تبليط البحر"، وحاويات البضائع عليها، والرافعات الشامخة على أطرافها، أفضل وأجمل من الكورنيش القديم بمقاهيه المتكئة على أمواج بحره ونزهات أبناء المدينة على امتداد رصيفه قبيل غروب الشمس، كورنيش الحب، كما كان يسميه العشاق الشعراء؟ بالتأكيد، لا. ولكنه أكثر اقتصادية، أكثر ضرورة، أكثر حداثة، بالتأكيد. ألم يكن ثمة ممكن آخر؟ نعم، لكن هذا الممكن الآخر لم يحدث، شروطه لم تكن قد أتت بعد.

**الواقع يحمل دائماً نقيضه: زوجين متصارعين. أيمن الجمع والمصالحة بين الإثنين؟ في لحظات نادرة يوحد الحب الصافي العاشقين فيصيران، والعالم من حولهما، جسداً متناغماً، روحاً واحدة.

د - هذه الظواهر وغيرها كثير، هي علامات وأشكال للخروج من عالم الموروث والانتقال إلى عالم الحديث. إنها بدايات، مجرد بدايات، تلتها علامات وأشكال. وستليها أخرى حتى تملأ الساحة، لكن الساحة فسيحة وتتسع. علامات عالم ندخله بتردد وتوعدة. التغيير وإن قد بدأ يدب في اللغة والعقائد والطقوس، لكن زمن هذه ليس كزمن التغيير في أصناف الأدوية والسيارات وتخريج الأطباء والمهندسين. إنه يتعدى العتبات. ربما وصلنا إلى عتبة يتطلب اجتيازها قفزة، نقلة نوعية. القفزات تثير دائماً ردود فعل قوية، عنيفة، صراعات لا تهدأ.

2-العولمة والأزمة

ظاهرتان تبرزان إذن اليوم: الأزمة والعولمة.

كل واحدة منهما هي جملة من الظواهر، من ناحية، تلك القائمة على أرض الواقع. ومن ناحية ثانية، تلك التي تتزامن معها وتغطيها وهي ظواهر رمزية يعبر عنها الخطاب السائد (في اللغة والفكر والتصور والخيال).

الأولى، الأزمة، تنتشر في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على نطاق العالم كمنظومة كلية، وتتعكس في حياة الناس أفراداً وجماعات ودولاً، في حياتهم الخاصة النفسية والأخلاقية، من قلق وخوف وانحراف وترقب وغيره.

الثانية، العولمة، تتجسد في حرية علاقات التبادل بين البشر والدول، حرية لا تحدها حدود جغرافية أو قانونية، وتتجسد بخاصة في وسائل الاتصال ووسائل الإعلام والثقافة التي تنتشر مادتها على نطاق الكون، تغزو الحياة العامة والخاصة دون عائق،...

العولمة، ظاهرتان منفصلتان ومتشابكتان في آن. الأولى طبيعية بمعنى أنها كامنة في أساس التقدم الإنساني والتطور التاريخي، يفرزها بخاصة التقدم العلمي والتكنولوجي. ذلك أن الإنسان هو في الجوهر إنسان صانع يصنع أدواته، ومنها وسائل الاتصال والإعلام والثقافة، التي تكمل أعضاء جسده وتضاعف فاعليتها وترفع مستوى حياته المادية والروحية. لذا فهو دائم العمل على تطويرها، ومعها تطوير معرفته وعقله، وعلاقاته مع الآخر، وبناء حضارته.

لكن العولمة ليست فقط ثورة الاتصال والمعلومات، إنما هي أيضاً، بل هي بخاصة حرية العلاقات الاقتصادية والسياسية بين الدول والبلدان، حرية التبادل التجاري وحرية انتقال الأشخاص، وهذا وجهها الثاني المكمل للأول. هنا تختلف الأمور عما هي عليه في وسائل الاتصال والإعلام. العولمة، هنا، في التبادل التجاري وانتقال الرأسمال والأشخاص تتم باتجاه وحيد الجانب، من الشمال الغني إلى الجنوب

الفقير. أما في الاتجاه المعاكس، من الجنوب إلى الشمال، فحرية التبادل والانتقال محدودة بقيود تفرضها دول الشمال وقوى النظام الذاتية بما يحقق مصالحها هي. وبالتالي فالعولمة عرجاء تمشي على رجل واحدة. صحيح أن الحرية مفتوحة نظرياً للجميع، ولكنها عملياً لا، ليست مفتوحة لدول الجنوب بل مقيدة أو معاقة بحيث لا تستفيد منها إلا إذا شاءت ذلك دول الشمال. فالدول الفقيرة يمكنها نظرياً، أي وفق نصوص الاتفاقية، أن تستفيد من الحرية، لكن الحرية تحددها علاقة القوة، وهي على مثال العلاقة بين الذئب والحمل. وهذا ما كان سابقاً في اتفاقات الامتيازات بين الدولة العثمانية والدول الغربية الاتفاقات التي كانت ثنائية قانوناً، لكنها تطبق باتجاه واحد لصالح الفريق الأقوى اقتصادياً، أي الدول الغربية، وبالتالي شكلت الأساس الذي قام عليها النظام الاستعماري.

لكن خطاب العولمة يقول لنا عكس ذلك تماماً، وهو الخطاب الرسمي الوحيد المفروض في وسائل الإعلام والثقافة. فهو يزعم إن العولمة صارت ضرورة تاريخية حيث جاءت لتهدم كل الجدران الفاصلة بين البلدان والأمم فتلغي أسس الفوارق بينها، وتنتشر الحرية والرخاء في كل مكان فتخلق عالماً جديداً واحداً موحداً متصلاً كالأواني المستطرقة تسري فيها السوائل دون عقبات فتذوب الأزمات والصراعات وتنتج البشرية إلى عصرها الذهبي المنشود، عصر السلام الأميركي، العصر الراكب على ثورة علمية-تقنية جامحة قادرة على حل جميع المسائل ونشر التنمية والرخاء في العالم أجمع.

أما إذا نظرنا إلى الواقع، وطرحنا السؤال: كيف تطورت الأزمة في ظل العولمة وبخاصة في دول الجنوب، فليس من الصعب أن نكتشف الحقيقة المرة. ف وراء هذا الخطاب المزيف، يتكلم الواقع بوضوح لمن يريد أن يرى ويسمع. فالواقع يؤكد كل يوم أن الأزمة والأزمات السابقة التي نشأت بعيد الحرب العالمية الثانية، قد ركبت مركب الشركات العالمية والدول القومية والصراعات والحروب فيما بينها، كما ركبت صهوة الثورة العلمية-التقنية الجامحة لتزداد بها انتشاراً وعمقاً. أي أن العولمة لم

تضع حداً نهائياً للأزمة، بل على العكس من ذلك، استمرت هذه وتفاقت ممطية ظهر العولمة ذاتها ومتغلغلة في أحشائها. والعولمة، بدورها، عمقت الأزمة والأزمات وعولمتها، بحيث أن البحث عن "وجه إنساني" للعولمة، وجه يقترب فيه الواقع من الخطاب، غداً أكذوبة تثير الضحك. هكذا صارت العولمة سبباً إضافياً للأزمة، بل صارت هي ذاتها أزمة.

أما نتائجها الكارثية فنراها واضحة وضوح النهار وفي تزايد مستمر كما تؤكد لنا الأحداث الكبرى المتلاحقة. فلا أحد يستطيع الزعم بأن الحروب والإرهاب وأنواع التعذيب والقهر توقفت أو انخفضت وحشيتها، ولا أن العالم صار أكثر أمناً وسلاماً، ولا أن الفساد والجريمة المنظمة تراجعاً، ولا أن أزمة تلوث البيئة والغذاء وضعت لها الحلول الملائمة، ولا أن الرخاء والتنمية تسرباً من الشمال إلى الجنوب، ولا أن الفوارق الهائلة بين الأغنياء والفقراء وعدد أصحاب المليارات تقلصت في أي مكان، أو أن ظواهر الفقر والبؤس والبطالة في بلدان الجنوب، بل وحتى في البلدان الغنية ذاتها، اختفت، ولا حتى أن الأمراض والجوائح انعدمت أو تراجع بالمرغم من كل المكتشفات العلمية والطبية. بل، على العكس من ذلك، يمكننا الزعم أو التأكيد، أن هذه التحديات والأزمات جميعها تضاعفت، وأضف إليها الأزمة السياسية وأزمة الديمقراطية في قلب الدول التي تفخر بامتلاكها، بل وأعمق من ذلك كله: أزمة الإنسان ومصيره ومعنى حياته في الشمال الغني ربما أكثر مما في الشرق المهزوم والجنوب المقهور.

3- أزمة العالم العربي ظاهرة تاريخية شاملة ومعقدة

3-1- سمات عامة لأزمة العالم العربي

ما هي خصائص الأزمة التي يعاني منها العالم العربي؟ ما جوهرها؟ ما شروطها وأخطارها الراهنة؟

أهي شر مطلق، شر من صنع القوى الخارجية "المتآمرة" على العرب، أو حرب على الإسلام، كما يقال بعد أحداث أيلول 2001 وكما يعتقد كثيرون من المتعصبين،

قومياً أو دينياً أو عقائدياً؟ وإذا كان كذلك، فهل يكون الحل بالجهاد الأصغر، بإعلان الحرب وممارسة أعمال الإرهاب ضد الآخرين؟ وهل مثل هذا "الحل" يزيل الأزمة أو يقربنا منه، أم على العكس يفاقم الأزمة وينعكس سلباً علينا؟

أو هي عقاب من الله على ذنوبنا وانحرافنا عن مبادئ الدين والأخلاق؟ وفي مثل هذه الحال، أياكون الحل بالتوبة والتكفير عن الذنوب، والعودة إلى الدين القويم والأخلاق الحسنة؟ وهل هذا ممكن، هل يمكننا الانعزال عن العالم "الملئ بالشر والفساد" وإقامة عالم الفضيلة مكانه بهدف اكتساب العالم الآخر أو بهدف استرضاء الله ونيل مغفرته لكي يأخذ بيدنا إلى النصر المؤزر؟

أم هي ظاهرة اجتماعية معقدة ولا يمكننا تجنبها لكنها طارئة على كل حال، فهي تحل بنا، كما تمر بها الشعوب الأخرى، وحتى الدول الغربية ذاتها بالرغم من قوتها وراثتها وتقدمها العلمي الخيالي وسيادتها العالمية؟

أم هي، أخيراً، ظاهرة ناجمة عن أسباب يمكننا معرفتها والتغلب عليها، وبالتالي يجب البحث عن هذه الأسباب و مواجهتها بكفاءة؟

الأزمة الشاملة، أي التي تصيب بنية المجتمع بأكملها، كما هي حالة أزمة العالم العربي، هي، في منظورنا، حالة عامة من الخلل والتمزق والفساد في مجمل علاقاتنا الاقتصادية والسياسية والثقافية والأخلاقية، في علاقتنا مع أنفسنا أولاً، وعلاقتنا فيما بين بعضنا بعضاً، وطنياً وقومياً، وعلاقتنا مع الآخر ثانياً، ومنه الغرب بخاصة. إنها حالة انتقال عسير وأليم، من بنية مجتمعنا التقليدية الراكدة، من مجتمع شبه مغلق يدور أفقياً على نفسه وينحدر منذ قرون، إلى مجتمع حديث، مجتمع أنموذجه الحي هو ذلك السائد في بلدان أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأميركية لكنه ينتقل منها بقوة الأشياء، كما يقال، أو بالمحاكاة المباشرة إلى بلدان العالم قاطبة. قد ننتقد هذا الأنموذج في أوجه كثيرة لا ترضينا، وقد نرفضه كلياً، أقله ظاهرياً، لكنه كامن في لاوعينا، ومفروض علينا بحكم قوة الأشياء. إن رغبناه دون مساوئه، الظاهرة منها للعين المجردة على الأقل.

والحقيقة أن هذا النموذج لم نأخذه بخيارنا، وإنما دخل علينا بصورة طبيعية تماماً عبر التبادل التجاري غير المتبادل بل والجائر المفروض علينا منذ نحو خمسة قرون، حيث بدأ مجتمعنا يستقبل السلع الأوروبية، منها بخاصة السلع البديلة لمنتجاتنا التقليدية كالمنتجات النسيجية والزجاجية والخزفية والجلدية وغيرها، بسبب جودتها أو تنوعها أو رخص أسعارها، ومنها السلع الجديدة ذات المحتوى التقني الحديث: ساعات حائط ميكانيكية تحدد الوقت بدقة، أسلحة نارية فردية، مصنوعات متنوعة، كيميائية، هندسية وغيرها. أما المطبعة الميكانيكية، فقد واجهتها معارضة بحجة دينية مزيفة أخرت استيرادها وانتشارها في مدننا نحو قرنين من الزمن. وبعد الثورة الصناعية، تدفقت مختلف أنواع المصنوعات الأوروبية وغزت أسواقنا ودمرت نهائياً منتجاتنا الحرفية، ثم دخلت الآلات والمكائن وسكك الحديد والكهرباء والتلغراف، والهاتف والسيارة وشبكة الطرق ومواد البناء والعمران وغير ذلك كثير. ومع هذه المصنوعات الأوروبية بدأت تتغير مفاهيمنا وأفكارنا وعاداتنا وأشكال مدننا وتقسيم العمل وعلاقاتنا الاقتصادية والاجتماعية وأسس التعليم وأشكال الفنون والثقافة. هكذا أخذت الآلية تتقلب سريعاً ضدنا: بينما كانت المصنوعات السورية تتال إعجاب الملوك والأمراء الأوروبيين في عصور سابقة، صارت البضاعة الأوروبية بدءاً من القرن الثامن عشر تتال عندنا الإعجاب والتقدير. حتى سرى القول المعروف: "كل شي فرنجي برنجي". كل هذه التغيرات كانت تتم بصورة طبيعية تماماً، أي وفق قواعد عمل النظام الاستعماري.

لكن المشكلة نشأت مع الغزو العسكري المباشر وما أحدثه ذلك من صدمة للوجدان وتحدياً للتقاليد والمعتقدات، فأثار ردود فعل معاكسة: يقظة الوعي والشعور بالأزمة، ومنه السؤال المصيري الذي عبر عنه مباشرة رجال النهضة. إذاً فالأزمة هي، في منشئها، أزمة وعي ناجمة عن الشعور الأليم والحاد بالتحدي الأوربي وبالفارق الكبير بين تقدمهم وتخلف العرب والمسلمين عنهم في ميادين الحضارة. بيد أن العدوان الاستعماري لم يتوقف عند تلك الصدمة الأولية،

وإنما استمر بأطماعه في القضاء على "الرجل المريض" للاستيلاء على بلاده وإخضاعها لمصالحه، ومن هنا تزايد التناقضات حدة والاتفاقيات الاستعمارية جوراً، وصولاً إلى الحرب، وسايكس- بيكو، وتفكيك بلاد الشام، وخلق الكيان الصهيوني، وما تلا ذلك من أحداث جسام، ووصولاً إلى هزيمة حزيران 1967 وهزيمة المشروع التتموي، الأساس المادي الأرسخ للسيادة السياسية وللهوية الوطنية. هزائم توالى وترأمت آثارها إذ بقيت دون رد الفعل الملائم، فصار هذا تحد تاريخي معلق فوق الرؤوس بانتظار أن تتضح الشروط الموضوعية والذاتية لمواجهته. فهل جاء موعدها اليوم إذ أطلقت الإرادة والفعل من عقالهما؟ الجواب هو أن الأحداث الجارية تحتل مثل هذه القراءة، شرط أن يؤكد لها مكر الواقع؟

لذا فالأزمة كامنة في أعماق وجداننا، في جذور ثقافتنا الحديثة، صراع بين ماضٍ يحتضر في داخلنا وحولنا، ومستقبل يتحدانا. لهذا فهي عملة يومية تبرز في كل مناحي حياتنا، وفي حالات كثيرة تكون لاشعورية أو مكبوتة ننفىها مكابرة أو خوفاً. ثمة في مجتمعاتنا حالات أزمة في الاقتصاد، في السياسة، في الثقافة، في التشريعات والقضاء، في المدرسة والجامعة، في العائلة، في العلاقة الجنسية المكبوتة باسم الشرف والأخلاق، في قضية المرأة المقيدة بألف قيد، في القيم الأخلاقية والعلاقات الاجتماعية، في العلاقات العربية البينية، في علاقاتنا مع الدول والعالم. باختصار، إننا ندور في متاهة من الأزمات. نرغب بأن تكون حالتنا جيدة ودائماً أفضل معتقدين بأن هذا من حقنا الأساسي كمواطنين وأعضاء في الأسرة الإنسانية. أحلامنا ومشاريعنا بالتححرر، بالتقدم، بالحرية والعدالة، نراها كل يوم تتكسر وتذهب هباءً، بينما نرى العالم من حولنا يسبقنا في كل شيء حتى بنتنا نخجل أمام ذات أنفسنا، وهويتنا تفقد ركائزها. أزمة تجتاح كياننا فدور في فراغ ونشعر بالغرابة أينما ذهبنا. أبنائنا يتخلون عنا، يهاجرون، لكن الأزمة تلاحقهم حتى وهم في ديار الغربة.

من نحن؟ من نحن العرب، السوريون، المسلمون، أين نحن من هذا العالم الذي صار بداخلنا، ويحيط بنا من كل صوب؟ من نحن ، وما مصيرنا اليوم وغداً؟

نختنق في جلودنا، وفي الوقت ذاته يستحيل علينا أن نستبدل بها جلوداً جديدة ومريحة.

نبني مصانع "وطنية" معظم عناصرها يصنعها لنا الآخرون، ونكاد لا نحسن تشغيلها ، وكذلك هي علومنا ومعارفنا وفنوننا وصيغ كلامنا وأنماط استهلاكنا. نحمل شهادات علمية حديثة، قشرة خارجية نتباهى بها، شعارات نرفعها، نكتبها على دفاتر مدارسنا، نعلقها على جدران غرفنا ومدننا. لكن عقلاً، منهج تفكيرنا، ممارساتنا لا تحمل الشهادات ذاتها، تبقى محكومة بمدونة ثقافية عسوية على التغيير، لا تخلو من معتقدات جامدة وحكايات أسطورية وعبارات جاهزة، وأفكار بالية، وتصورات غيبية محبوكة بخيوط الخضوع والجهل.

تغيرات تتكاثر، تتناقض، تتراكم،.. علامات وأشكال للخروج من عالم الموروث والانتقال إلى عالم حديث. إنها بدايات، مجرد بدايات، تلتها علامات وأشكال مرة بعد مرة. وستليها أخرى حتى تملأ الساحة، لكن الساحة فسيحة وتتسع. علامات عالم ندخله بتردد وتوعدة، لأنها تطلق صراعات لا تهدأ بين ما ينتهي وما يولد. التغيير وإن قد بدأ يدب في اللغة والعقائد والطقوس، في العقل والجسد، فهو التحدي الأصعب لأن زمن هذه الأشياء ليس كزمن التغيير في أصناف السيارات والأدوية وتخريج الأطباء وأشكال العمران. إنه يتعدى العتبات ذاتها ليمتد على أجيال.

ربما وصلنا الآن إلى عتبة يتطلب اجتيازها قفزة، نقلة نوعية. القفزات تثير دائماً ردود فعل قوية، عنيفة، صراعات، مذابح...

3-2- لأسباب المباشرة والبعيدة للأزمة

الأسباب البعيدة تكمن في سيرورة التخلف التي عمرها قرون. أما الأسباب المباشرة فهي التي نعيشها ونعيها.

خلال نصف القرن المنفرط تغير العالم من حولنا تغيراً جوهرياً، وربما جذرياً. فقد أنجز الغرب اكتشافات علمية واختراعات تكنولوجية لا مثيل لها، كما شهد أيضاً إنجازات أساسية في العلوم الاجتماعية والإنسانية ومنها بخاصة العلوم النفسية. ثورة

هائلة، رائعة وخطيرة في آن، حدثت و تباغتتنا وتسحرنا كل يوم بمنتجاتها المستجدة . في الفترة ذاتها حصلت البلدان العربية على استقلالها السياسي وراحت تحلم بعالم جديد، بالحرية والازدهار والتقدم والوحدة القومية واللاحق بعجلة التاريخ. فماذا أنجزت؟ صار لها أعلام وسفارات، وصار لها قصور وأساطيل سيارات فارهة، ومشاركات في المؤسسات العالمية.. ومدنها الكبرى تعج بالبشر والبضائع والإعلانات المثيرة.. لكنها هل اقتربت من أهدافها الكبرى؟ هل صار المواطن العربي أكثر أمناً، أكثر تفتحاً، أكثر احتراماً وتقديراً في عيون الآخرين؟

لذا تبهرنا مكتشفاتهم العلمية وتسحرنا صناعاتهم الدقيقة القريبة من الكمال، فنصفق لها إعجاباً. نصفق لها، هذا حق وعدل، لأنها منجزات العقل البشري. لكن... لكن في القلب حسرة وألم وفي الرأس توجس وخوف: لماذا؟ لماذا لا نساهم بصناعاتها؟ بإضافة شيء ما عليها، بتطويعها لحاجاتنا؟ لماذا عقلهم يعمل وعقلنا معطل، علومهم فاعلة وعلومنا خلبية؟ لماذا هم الأسياد، ونحن "ماسحو أذيتهم"، كما يذكرنا تشومسكي؟

سائحون نحن في عالم بينونه هم دوننا، متفرجون في حلبة يلعبون فيها. قاعدون ننتظر نتائج ما يكتشفون وما يصنعون، فنسرع لامتلاك واستهلاك ما يقدمونه لنا. لكن هل نعلم شيئاً عن دواخلها، عن النظريات والتجارب العلمية، عن طرائق العمل والتنظيم والجهد والتفكير والبحث التي تقف خلفها؟ الجواب هو لا. لا نافية ومؤلمة.

هنا سر الأزمة العربية، هنا تكمن المأساة. نشعر بها صراحةً أو بشكل غامض، لكن هل نعيها حقاً؟ هل نعترف بها ونبحث عن أسبابها، وهو شرط ضروري للعمل الجاد على تجاوزها؟ أم نغمض أعيننا واثقين أن الغد لنا سيكون؟ أن أمجادنا الغابرة ستبعث بقوة قادر؟ لماذا؟ لأنها كامنة دفينه في أعماقنا؟ لأننا مهد الحضارات والأديان العالمية؟ لأننا الشعب المختار؟.. هكذا نبرر لأنفسنا تقاعسها، نطمر رؤوسنا في الرمل، ونتابع الطريق. لكن الواقع ماكر عنيد، وعقلنا الباطن قد يحافظ على صمته

الخادع. أما الأحداث الجارية فإنها تأتي دائماً لتذكرنا بمن نحن ومن هم، ما هي حقوقنا وما هي حقوقهم. عقلنا يعقلن، يبرر، يخفي. لكن اللاشعور، هل ينسى؟ هل يمكننا أن نأمره فيطيع؟

بعبارة موجزة، يكمن سبب أزمتنا في هذا بالذات، في عجزنا عن تحقيق مشروعنا الحضاري الذي نسعى ونؤكد عليه دائماً، تارة باسم التقدم، وتارة أخرى باسم التنمية الاقتصادية أو التنمية الشاملة، أو تنمية تشاركية- محورها المواطن" (عنوان الخطة الخمسية العاشرة) أو غير ذلك. شعارات، أو هام..، لكننا في كل مرة يصدمننا الواقع وتصيبنا الخيبة. أليس من أهم نتائج هذا العجز فقدان مصداقية وشرعية النظم السياسية والاجتماعية والثقافية العربية والمؤتمنين عليها، واتساع الهوة بينها وبين أجيالها الشابة، وبينها وبين العالم المتقدم، وما ينجم عن ذلك من ممارسات فاسدة وعلاقات استبدادية وقمع وكبت، وهجرة أدمغة وأموال، وانتشار مشاعر القلق والضييق والخوف على المستقبل. لكن هل المسؤولية تقع على كواهل النظم السياسية وحدها؟

4- في ضرورة الأزمة: شر لا بد منه

الأزمة، كما يعلمنا الواقع وتثبتته العلوم الاجتماعية والتاريخية، هي ظاهرة طبيعية في حياة الأفراد والجماعات والدول والحضارات. طبيعية بمعنى أنها ليست حدثاً استثنائياً طارئاً من صنع قوة خارقة مجهولة، وإنما تحدث وفق قوانين التطور التاريخي الموضوعية والتي تلعب فيها أعمال البشر- أفراداً (العابرة والأنبياء العظام، مثلاً) وجماعات ومؤسسات- ومعتقداتهم وأوهامهم وقيمهم المعنوية والأخلاقية دوراً هاماً وقد يكون حاسماً في ظروف معينة.

ضرورة الأزمة، ناجمة عن قوانين الحياة ذاتها، لأن قوانين الحياة تخلق الحركة، العلاقات، التبادل، التناقض، التغيير، النمو، الركود، الهبوط، المرض، الشيخوخة والموت، الانبعاث، التمرد، الثورة، الإصلاح، إعادة البناء، الردة والانتكاس..

والنتيجة العامة لكل هذا النسيج المتشابك تحدد، على محور الزمن، الخط العام لحركة الواقع أو ما نسميه تطور أو سيرورة الحياة.

كل تغير يجري في عنصر ما، في عدد السكان، في التقنية، في السياسة، إلخ. يحدث خللاً في التوازن في الاتجاه نفسه فيفانم الخلل، أو في الاتجاه السالب (المعاكس) فيحرض أو يقتضي، لأجل إعادة التوازن الطبيعي، حدوث تغير ملائم في بعض أو كل العناصر الأخرى، هكذا تحدث سلسلة من التغيرات في السياسة، الثقافة، العلاقة الاجتماعية التي تدفع بترابطاتها الكثيرة المجتمع ككل في اتجاه ما، نحو الأمام أو على العكس نحو الخلف. لكن هذا التغير قد يكون معاقاً، مكبوحاً، مقموعاً، .. بفعل قوى التقاليد الجامدة، بفعل نزعة الحفاظ على الذات والخوف من التغيير، بفعل مناهضة أصحاب الامتيازات، بفعل التعصب للماضي والردة، أو بفعل سلطة اجتماعية ، مالية، سياسية..، أو بفعل الأعداء. وبشكل عام بفعل مجموعة متشابكة من هذه العناصر. بعض هذه العناصر قائمة في داخل كل فرد منا، قد يكون في أعماق الثقافة والاشعور، أو قد يكون بشكل صريح وربما حاد وتعصبي. لكنه بالتأكيد موجود في عقلنا الجماعي الجزئي والكلي: في الأسرة الأبوية، في الأحزاب، في علاقات العمل، في النظام العام.

5- آفاق الأزمة. هل من حل قادم؟

هل يمكن إنهاء التخلف والأزمة؟ هل يمكن أن نمارس الديمقراطية والحرية والمسؤولية؟ هل يمكننا أن نحدث اختراقات علمية، سياسية أو غيرها؟ ربما، ولكن في أي زمن، وفي أي شروط داخلية وخارجية؟ هل شرطنا الداخلي مهياً لاقتناص الفرص السعيدة وتجنب الفرص الحزينة؟ الأرجح، لا! لماذا؟ لأن الاهداف لا تتحقق بالإرادة وحدها، وزمن المعجزات قد ولى. الديمقراطية لا تهبط علينا على طبق من فضة، ... الأهداف الرائعة لا تتم بقوانين إصلاحية أو ثورية، وإن كانت مثل هذه القوانين الوضعية ضرورية، شرط أن تأتي في وقتها. إنها تبدأ بخطوات قليلة متعثرة مترددة على طريق واسع طوله لا يقل عن المسافة التي تفصل مدرستنا الابتدائية عن

مركز أبحاث علمية في جامعة رائدة. الطريق طويل وصعب، لكن المهم أن نبدأ، وأن يكون العقل هادياً لنا، لا عقل النص والطقوس، وإنما عقل الروح، عقل المعرفة والعلوم، عقل نظافة الأخلاق والاستقامة. فهل نحن قادرون على إنتاج هكذا عقل. هذا هو التحدي الأعظم الذي تقع علينا مسؤولية مواجهته. هذه ضرورتنا التاريخية وهي ، من آلام الأزمة ومآسيها ستولد.

دمشق 19 حزيران 2011

رزق الله هيلان